ماهية النص والتراث

خليدة بن عياد

المركز الجامعي بالبويرة الجزائر.

الأصالة والمعاصرة..... الماضي والحاضر..... العودة إلى الخلف أو التقدم إلى الأمام....

لماذا كل هذه المصطلحات والتقابلات؟

لماذا يكثر الحديث عن التراث وعن الفصل الجازم بينه وبين الحاضر الجديد؟

لماذا وجد العربي نفسه اليوم أمام مفترق طرق لا ينبغي أن يكون، أو ربما يجب الفصل فيه.. التراث والحداثة، وقبل أن نتحدث عن التراث نفصل أولا في قضية وجوده، إذ وجد من ينفي تماما التراث العربي والإسلامي لأنه مجرد بضاعة من الماضي ويجب أن تبقى في الماضي.

وفي هذه الحالة يقتصر وجودها في الدراسات الأكاديمية المختصة بشؤون الماضي لكن هذا لا يمكن أن يكون إلا في حالة واحدة وهي وجود قيود متينة في هذا الماضي تمنعنا من التقدم على الأمام، وقبول كل ما هو جديد أو حديث.

والحقيقة أن الأفكار والطروحات الموجودة في التاريخ العربي الإسلامي لا تحبذ هذا ولا تدعو إليه مطلقا بل تدعو إلى عكس ذلك تماما مع شيء من الاعتدال في الانبهار بكل ما هو جديد،

وليست أحاديث الرسول الكريم (ص)، والقرآن الكريم منطلق التراث الأدبي الصحيح إلا شاهده على ذلك.

ما هو التراث؟

أ- مصطلح التراث في التراث:

في القواميس العربية:

لسان العرب: لم نجد أثرا للفظ التراث فيه إلا ما ورد تحت في الإرث والميراث، فتقول أورثه الشيء أبوه، وهم ورثة فلان، وورثه توريثا أي أدخله في ماله على ورثته، وتوارثوا كابرا عن كابر، وفي الحديث: أنه أمراض، أم تورث، دور المهاجرين النساء، تخصيص النساء بتوريث الدور، قال ابن الأثير يشبه أن يكون على معنى القسمة بين الورثة وخصصهن بها لأنهن بالمدينة غرائب لا عشير لهن فاختار لهن المنازل تاج العروس ورث، ورثا، وراثة وإرثا، يقال: ورثت فلانا مالا، أرثه ورثا، إذا مات مورثك فصار ميراثه لك.

الوارث: صفة من صفات الله تعالى، هو الباقي الدائم بعد فناء الخلق وهو يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، أي يبقى بعد فناء الكل، ويفنى من سواه، فيرجع ما كان ملك العباد إليه وحده لا شريك له وفي التنـــزيل: "يرثى ويرث من آل يعقوب"[1].

---

[1] سورة آل عمران آ 6.

و في الدعاء النبوي " اللهم أمتعني.....بسمعي وبصري واجعله" – وفي رواية أخرى بالتثنية– واجعلهما الوارث مني، وقيل بقاءهما وقوتهما عند الكبر وانحلال القوى النفسانية فيكون السمع والبصر وارثي سائر القوى[1].

في القرآن الكريم والتفاسير: ورد ذكر كلمة التراث مرة واحدة في القرآن الكريم في الآية "كلا بل لا تكرمون اليتيم ولاتحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما"[2] سورة الفجر آ 17 مه.

وفسرها الزمخشري: بأنهم كانوا يجمعون أكلهم بين نصيبهم من الميراث ونصيب غيرهم، فالتراث هو المال الذي تركه الهالك وراءه. أما كلمة ميراث فقد ذكرت مرتين في عبارة الآية الكريمة " ولله ميراث السموات والأرض"

سورة آل عمران آ 18.

سورة الحديد آ 10.

و في التحرير والتنوير: التراث المال المورث أي الذي يخلفه الرجل بعد موته لوراثه وأصله: وراث بواو في أوله بوزن فعال من مادة ورث بمعنى مفعول مثل الدقاق، والحطام، أبدلت الواو تاء على غير قياس كما فعلوا تجاه ـــ تخمة وتهمة وتقاة وأشباهها..... وأشعر قوله "تأكلون" بأن المراد التراث الذي لاحق لهم فيه، ومنه وجه إيثار لفظ تراثدون أن يقال يأكلون المال لأن التراث مال مات

---

[1] تاج العروس في جواهر القاموس للزبيدي، ج3، ص 276

[2] سورة الفجر آ 17.

صاحبه وأكله يقتضي أن يستحق ذلك المال عاجز عن الذنب عن ماله لصغر أو أنوثة[1].

وجاء في فقه الإمام مالك: في باب بأكمله تحت عنوان – كتاب الفرائض ذكر الميراث– في فصول كثيرة ميراث.....، ميراث الرجل لامرأته، ميراث المرأة لزوجها، ميراث الإخوة للأم...الخ

عن مالك: الأمر المجتمع عليه عندنا، والذي أدركت عليه أهل العلم ببلدنا في فرائض المواريث أن ميراث الولد من والدهم أو والدتهم أنه إذا توفي الأب أو الأم، وتركا ولدا رجالا أو نساء، فللذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساءا، فوق اثنتين، فلهن ثلثا ما ترك[2]...

وخلاصة القول أنه جاء ذكر التراث والميراث بمعنى التوريث أو بوراثة وهو ما تركه الهالك للحي من مادة، مال، أرض، ذهب، علم....الخ

" العلماء ورثة الأنبياء".

و قد عني الفقه الإسلامي عناية كبيرة بطريقة توزيع تركة الميت على ورثته حسب ما قرره القرآن الكريم، والكلمة الشائعة والمتداولة لدى جميع الفقهاء هي كلمة ميراث بالإضافة طبعا على: ورث، يرث، ورث، توريث.

---

[1] محمد الطاهرابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير– دار سحنون للنشر والتوزيع تونس، المجلد 12 ص 334.

[2] متن موطأ الإمام مالك (ض) على رواية يحي بن يحي – دار الكتب الجزائر 1985– ص268.

مصطلح التراث حديثا،

ترجمة لمصطلح التراث لا يحملان Héritage،Patrimoine في اللغة الفرنسية نجد المصطلحين المضمون نفسه الذي نجده في العربية، إذ لا يتجاوز معناهما حدود المعنى العربي القديم للكلمة، والذي يحيل أساسا على تركة الهالك لأبنائه، إلا في بعض التعابير المجازية دلالا على المعتقدات والعادات الخاصة، أما في اللغة العربية المعاصرة، فالتراث يعني المورث الثقافي والفكري والديني والأدبي والفني، وهو المضمون الذي تحمله هذه الكلمة داخل خطابنا العربي المعاصر ملفوفا في بطانة وجدانية إيديولوجية لم يكن حاضرا في خطاب أسلافنا ولا في حقل تفكيرهم، كما أنه غير حاضر في خطاب أية لغة من اللغات الحية المعاصرة التي نستورد منها المصطلحات والمفاهيم الجديدة عنيد.

الواقع أن لفظ "تراث" قد اكتسى في الخطاب العربي الحديث والمعاصر معنى مختلف مباينا إن لم يكن مناقضا لمعنى "مراد فيه الميراث" التركة التي توزع على الورثة، أو نصيب كل منهم فيها، أصبح يشير اليوم إلى ما هو مشترك بين العرب، أي إلى التركة الفكرية والروحية التي تجمع بينهم لنجعل منهم جميعا خلفا لسلف، وهكذا فإذا كان "الإراث" أو "الميراث" هو عنوان اختفاء الأب وحلول الابن محله، فإن "التراث" قد أصبح بالنسبة للوعي العربي المعاصر عنوانا على حضور الأب في الابن، لذلك فإن التراث العربي

الإسلامي لا ينظر إليه كماضي فقط بل هو تام حاضر هذه الأيام متمثلا في تقاضيها عقيدة وشريعة لغة وأدبا[1].

إذن فالتراث بهذا المفهوم هو: مجموع الأفكار والأقوال والنصوص المنحدرة إلينا من الحضارة العربية الإسلامية في القرون الوسطى هذه الثقافة التي تسجل بنفسها بدايتها ومنطلق تشكلها، وليس هذا المنطلق ولا تلك البداية شيئا آخر غيرما اصطلح على تسميته بـــ"عصر التدوين" عصر البناء الثقافي العام في التجربة الحضارية العربية الإسلامية، العصر يمتد زمنيا ما بين منتصف القرن الثاني ومنتصف القرن الثالث للهجرة ليشكل الإطار المرجعي للفكر العربي بمختلف ميادينه وإذا كان هذا واضحا بالنسبة لعصر التدوين وما بعده فهو أوضح بالنسبة لما قبله لأننا لا نعرف شيئا عن الثقافة العربية قبل "عصر التدوين" إلا ما تم تدوينه في هذا العصر نفسه[2]

ويجب أن نفهم من التدوين، هنا ليس مجرد التسجيل والتقييد، الشيء الذي كان قائما من قبل، بل يجب أن نفهم منه إعادة بناء الثقافي العام بكل ما تنطوي عليه هذه العملية من حذف وزيادة وأبراز وإخفاء وتلوين وتأويل.. ففي هذا العصر شيدت العلوم العربية الإسلامية وترجمت الفلسفة، وعلوم الأوائل إلى العربية مما أضفى خصوصية مميزة على الثقافة العربية الإسلامية.

---

[1] محمد عابد الجابري: التراث والحداثة، دراسات..ومناقشات– مركز دراسات الوحدة العربية بيروت 1999، ص 24.

[2] نفس المرجع السابق، ص 142.

التراث والدين:

- **ما هو الدين:** هو مجموعة النصوص التي جاء بها الرسول وبلغها للناس كافة، والدين حركة، إتصال بين العبد وربه، ينتج عنها الالتزام بعقائد وشرائع إلهية.

الكتاب الذي يأتي به الرسول إلى قومه إنما يحوي أصول وقواعد هذا الدين ومن ثم تعد مخالفته والطعن فيه خروجا عن الدين، وكفرا به.

التوراة تحوي دين اليهود....

الإنجيل يحوي دين النصارى....

والقرآن الكريم كما بلغه الرسول محمد (ص) يحوي دين المسلمين فهو كما يسنه الرسول (ص) يعد مصدرا لهذا الدين وتنحصر مهمة الرسول (ص) تبليغ القرآن وتبيينه للناس "وما على الرسول إلا البلاغ"[1] كما أن تبيين جزيئات الدين تكون ضمن حدود القرآن وحتى يكون التزام الرسول (ص) بهذه الحدود مضبوطا قيدت حركة نطقه.

"وما ينطبق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي"[2].

وذلك من أجل الحفاظ على شكل الدين وقواعده كما أراد الله سبحانه وتعالى، ففهم دور الرسول (ص) مقدمه لفهم القرآن، وفهم القرآن هو معرفة الدين والإحاطة به ودور الرسول (ص) في البلاغ والبيان ينتهي بوفاته، أما دور القرآن فهو مستمر إلى قيام

---

[1] سورة النور آ 54.

[2] سورة النجم آ 43.

الساعةوأن ما يخالف القرآن ينبذ بعيدا إلا ما صح نسبه إلى الرســـول (ص) من قول وفعل أو تقرير، فالقرآن هو ماضي وحاضر ومستقبل هذه الأمة وأما التراث فهو مجموع الاجتهادات الحاثة على الدين من أقوال وروايات وتفسيرات ويدخل في دائرته تفسير القرآن وشرح الحديث والتاريخ، والفقه...وشتى النتاجات التي تمخض عنها العقل على ضوء الدين

فالقرآن الكريم هو المصدر الحق لهذا الدين وهو الأول في الأخذ، ثم بعده المصادر الأخرى كالسنة والإجماع، والاجتهاد، إذن ما تعلق بالقرآن هو التراث، فالقرآن ثابت لأنه نبع هذا الدين.

أما التراث فمتغير بحكم تعلقه بمجهودات البشر واجتهادهم وأبحاثهم.

إن الدين ومصدره القرآن الكريم ثابت لا يؤخذ فيه ويرد.

أما التراث فهو محل أخذ ورد.

القرآن الكريم بلاغ من الله إلى عباده، والتراث اجتهاد بين الفرد والنص.

كما أن فقهاء السلف لم يقل أحد منهم أن قوله أو اجتهاده ملزم للمسلمين، وأن مخالفته تدخل المسلم في دائرة الكفر، فيقول هذا من اعتقد أن كلامه نص، ولو تبنى المسلمون قضية الفصل بين النصوص، وأقوال الرجال معتبرين النصوص هي الأصل وأن الاجتهاد حادث عليها مع جميع أطروحات التراث لأمكن جلاء الحقيقة وإظهار الدين في صورته النقية الصافية.

وبين هذا وذاك نقول أنه لا يجب إغفال التراث وإلغاؤه لأنه ضمير الأمة، والمرآة التي نرى فيها تحقق الممكن.

والعودة إليه أو قراءته ليس لمجرد أنه تراث للآباء والأجداد، بل لأننا نقرأ فيه ما ينبغي أن يكون وهو قراءة للمستقبل في صورة الماضي والذين يدعون مثلا إلى الأخذ بتعاليم إسلام يستحضرون في أذهانهم المرامي الكبرى والمثل العليا التي طمحت الأمة الإسلامية إلى تحقيقها كالشورى والعدالة الإجتماعية والتقدم الحضاري بمختلف مظاهره.

ولكن تحقيقه لايمكن أن يتم إلا بتجاوزه والتجاوز هنا لا يعني التخطي أو القفز من فوق بل الاحتفاظ والنفي فتحقيق التراث يتطلب عدم التقوقع فيه والوقوف عنده، بل تطويره وتطويعه بالشكل الذي يسمح بتحقيقه على ضوء متطلبات العصر وظروفه إنه لنزول من "ميدان العقل" إلى ميدان الواقع ومن التطور النموذجي إلى التطور التاريخي والخطوة الأولى في هذه الطريق هي إعادة قراءة التراث نفسه[1]

التراث والفلسفة: إن الباحث في تاريخ الفلسفة العربية، ليجد حالا غريبة في علاقة الفلسفة بالأدب إذ يتجددان أحيانا وينفصلان أحيانا كثيرة، لذلك فالفلسفة شكلت لنفسها لغة غريبة عن الأدب، بدأت تتكون في بداية أمرها شيئا فشيئا، ولكنها ما لبثت أن انطوت وتنحت عن الصورة، لما تعلق الأمر ببعض المواقف المتعلقة بالدين، فكانت ردود الأفعال صارمة في ذلك، مثلما كان مع أبي حامد الغزالي في كتابه" **تهافت الفلاسفة**".

---

[1] محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، ص104ـــ105

ولأنها كانت تتعارض بعض الآراء الفلسفية وروح الأمة المسلمة، حاول الفلاسفة إيجاد القالب الملائم لبلورة الفكر الفلسفي، فاختبأت الفلسفة في علوم أخرى كعلم الكلام، والفقه، والدراسة اللغوية، فالذي يقرأ هذه العلوم يجد النصوص الفلسفية واضحة فيها ولا شك في أن المقولات المستمدة من أرسطو قد أصبحت من بنية اللغة العربية.

وما المناظرة التي وقعت بين أبي سعيد السيرافي النحوي، ومتى بن يونس المنطقي، والتي نقل تفاصيلها أبو حيان التوحيدي في كتابة الإمتاع والمؤانسة دور في انطلاق الاشتغال بالتقريب اللغوي للمنقول المنطقي ومدار هذه المناظرة إجمالا على ثلاث مسائل[1]:

– **المنطق بين الشمولية والخصوصية:** يبطل أبو سعيد بشمولية (المنطق) ببيان أن أرسطو وضعه على مقتضى لغة اليونان، وأن معانيه فسدت بالترجمة من اللغة اليونانية إلى السري نبده ومنها إلى العربية، بحيث يقتضي شرحه إتباع عادات العرب في التعبير والتفكير.

– **المنطق بين الاستقلال عن اللغة والتقيد بها:** وقد تعرضت هذه المسألة إلى حقيقة كل من المنطق والنحو فيما إذا كانا وجهين لحقيقة واحدة.

– **المنطق بين الصناعة والطبيعة:** وتطرقت المناظرة لمسألة ما إذا كان المنطق صناعة ترفع بقوانينها للخلاف بين الأمم وتوجه عقولهم

---

[1] طه عبد الرحمن: تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، ط2، المغرب 2005، ص330.

إلى معرفة واحدة أو كان نظرا طبيعيا في المعقولات تختلف فيه الأمم كما تختلف في غيره.

– ثم إذا عرفنا بأن متى بن يونس كان أستاذ الفرابي في المنطق علمنا السر في تولي الفارابي افتتاح الطريق للتقريب اللغوي للمنطق وفي اشتغاله ببعض القضايا التي تطرقت إليها هذه المناظرة مثل الحروف التي أفرد لها مؤلفين: كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق وكتاب الحروف.

أما عن اللغة وحقيقتها فقد حاول العلماء والمفكرون واللغويون على مر العصور، أن يسبروا غور هذه الظاهرة الفريدة والعريقة في حياة البشر، وان يزيحوا الستار عن سر أصلها ونشأتها ولكن عراقة اللغة وقدمها حالا دون الوصول إلى سر الأصل والنشأة، فانصرف العلماء واللغويون منهم خاصة عن الخوض في سر النشأة ومتاهات الأصل والتفتوا إلى اللغة ذاتها يحللونها ويدرسونها، تحدوهم في ذلك تساؤلات كانت وما تزال تتحدى عقولهم مثل: ممّ تتركب اللغة وكيف تتركب وما وظيفتها في حياة الناس والمجتمع؟وما علاقتها بالفكر والنفس أهناك فرق بين لغة وأخرى؟ أم أن اللّغات تتشابه وإن كانت تتشابه فما أصل هذا التشابه ومظاهره؟ وإن كانت تختلف فما حقيقة هذا الاختلاف وحدوده؟ أتبقى ساكنة جامدة على مر العصور أم تنمو وتتغير وتتطور. عشرات الأسئلة التي ظلت تلاحق اللغويين والعلماء والفلاسفة منذ بدأ الإنسان يفكر في اللغة[1]

---

[1] حلمي خليل: مقدمة لدراسة فقه اللغة، دار المعارف الجامعية، الإسكندرية 2003، ص5و6.

وقد استطاع علماء العربية القدماء الإجابة عن بعضها (الأسئلة) في تراث لغوي ضخم، لأن العربية لم تكن كغيرها من اللغات وإنما كانت ولاتزال لغة حياة وعبادة منذ أنزل القرآن الكريم ناطقا بها.

ولعل هذه الخصوصية كانت سببا وراء انكباب اللغويين على دراستها وتحليلها والكشف عن نظامها بما أتيح لهم في عصرهم من علوم ومعارف، فاستخدموا في دراستها أساليب الفقهاء وعلل المتكلمين والمناطقة، كما وظفوا جانبا من العلوم الطبيعية في دراسة أصواتها، ويعد كتاب "**أسباب حدوث الحروف**" لابن سينا خير دليل على ذلك حيث تطرق إلى الصوت قرعاً وقلعاً[1].

وقد أتاح لنا العصر الحديث من علوم اللغة وطرق دراستها وتدريسها ما لم يتح مثله لعلماء العربية القدماء، فهل نقف بعد هذا وقفة المتفرج على هذه العلوم قانعين بما في التراث اللغوي من معارف وعلوم نحفظها ونجترها ونرددهاأم نشارك ونتفاعل حتى نبث الحياة في هذا التراث بمعارف وعلوم نعيد له سيرته الأولى فقراءة التراث اللغوي العربي قراءة فهم وتمثل لا قراءة حفظ وترديد، تضع بين أيدينا إجابة واضحة مستقيمة عن هذا السؤال.

---

[1] نفس المرجع السابق، ص6.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

ـــ القرآن الكريم

ـــ الزمخشري: تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنـــزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، صححه محمد عبد السلام شاهين.

ـــ ابن عاشور (محمد الطاهر) تفسير التحرير والتنوير.

ـــ ابن منظور (محمد ابن مكرم): لسان العرب.

ـــ الزبيدي: تاج العروس في جواهر القاموس.

المـــــــــراجع:

ـــ الجابري (محمد عابد): التراث والحداثة دراسات. ومناقشات مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت 1999.

ـــ طه عبد الرحمن: المركز الثقافي العربي، ط2 المغرب 2005

ـــ حلمي خليل: مقدمة لدراسة فقه اللغة، الإسكندرية 2005